مصطلح الإمالة عند اللّغويّن والقرَّاء
بين المفهوم والتَّعليل

د. سعاد بسناسي
– جامعة وهران–

الملخّص:

الإمالة (INFLEXION) منطوق لغويّ يوحي معناه بالخروج عن المعتاد، وفي مجال الدّراسات الصّوتيّة هو ميل بالفتحة عن مسارها الأصليّ، وتتمثّل الإمالة عند القرّاء في الميل من اتّجاه الفتح إلى الكسر، وهي عند اللّغويين غير ذلك، وأكثر من ذلك. وحديث الإمالة طويل مختلف فيه، جمع بين الظّاهرة والتّلوين، ممّا يستدعي الوقوف عنده تحليلا وتمثيلا وتعليلا، بتبيان مفهومه، والاختلافات الواردة حوله، ومواضعه، وتأثيراته في السّياق من خلال تتبّع تنويعاته الدّلاليّة.

الكلمات المفتاحية: الإمالة، القراء، الصوت، الدلالة، النطق.

Summary:

Inflection (INFLEXION) is a linguistic operative that implies a deviation from the norm. In the field of phonological studies, it is a tendency in the opening from its original path. The inclination for readers is the tendency from the direction of the opening to the fracture, which for linguists is otherwise, and more. The hadith of inclination is long and differs in it, combining phenomenon and coloration, which calls for analysis, representation and explanation, by clarifying its concept, the differences around it, its locations, and its effects in the context by tracing its semantic variations.

Keywords: inclination, readers, sound, semantics, pronunciation.

الإمالة مفهوم وموقعيّة

الإمالة تركيبة صوتيَّة توحي بالاقتراب والابتعاد معاً، لأنَّ الميل عن الشَّيء هو ابتعاد عنه، وفي الوقت ذاته هو اقتراب من غيره؛ وتوقَّف أصحاب المعاجم عند الشقّ الأوَّل منها بقولهم: «الميل: العدول إلى الشّيء والإقبال عليه»"[1]" ولم يتصدّوا لضدّ العمليّة التي تعني كلّ إمالة عن شيء هي ابتعاد منه واقتراب من غيره. هذا فحوى المفهوم، أمَّا في مجال مستويات الدِّراسة اللّغويَّة والصَّوتيَّة أوَّلها، فللإمالة أحكام وأحوال وخصائص.

والإمالة بذلك، تُعدُّ ظاهرة لغويّة قُيّدت بتعاريف وحدود وأمثلة تطبيقيّة، وهي عمليّة صوتيّة تقريبيّة؛ لأنّها تهدف إلى تحقيق الخفّة والاقتصاد في الجهد والنّطق. وحينما نتحدّث عن الإمالة ينبغي الإشارة إلى إنَّ الكمّيات الاتِّساعيَّة للصَّوائت العربيَّة تسير في اتِّجاه عمودي، والصَّوت المتوسِّط منها يمثِّله صائت الفتحة، ولتوضيح هذه الوضعيّة نتصوَّر للصَّوائت العربيَّة مسارا له بداية ونهاية وجانبان، والصَّوت ظاهرة منتقلة بدايتها سكون ونهايتها سكون، والفتح ضدّ الإغلاق، والإغلاق هنا يمثِّله سكونا البداية والمنتهى، والفتح تمثِّله الفتحة المتَّجهة في خط أفقي مستقيم، وذلك إذا راعينا عمليّة مرور الهواء في القناة الصَّوتيَّة، وتصوَّرنا ذلك الممر قناة رقيقة.

ولكن هناك تصوّر آخر نراه أدقّ وأوضح، وهو تشبيه القناة الصَّوتيَّة بشكل هندسيّ مستطيل، ويتوسَّطه خط مسار الفتحة، مبدؤه سكون وآخره سكون، وعن جانبيها الضمَّة من أعلاها والكسرة من أسفلها؛ وفي حال ما إذا غيّر مسار الفتحة اتِّجاهه من خطه المستقيم في اتِّجاه الضمَّة أو الكسرة سمي ذلك التَّحوُّل إمالة"[2]" ومن هنا، تكون الإمالة إمَّا من الفتحة في اتِّجاه الكسرة أو الضمّة، بالاقتراب من إحداهما.

الإمالة عند اللّغويين

لقد رجّح اللّغويّون التَّوجيه الصَّوتي في الإمالة نحو الكسر، وسمَّوا التَّوجُّه الضّم تفخيما، والإمالة هي أن تنحو بالألف نحو الكسرة"[3]" وتوسَّع بعضهم في التَّفصيل فقال فيها: (الإمالة هي أن ينحى بالألف نحو الياء، وبما قبلها من الفتحة نحو الكسرة)"[4] " وفي هذا النَّص تفصيل وتنويع، حيث صارت الإمالة نوعين

من الفتحة وأخرى من الألف. وإلى هنا يكون حكم الإمالة الوجوب، لولا من في الإمالة: (وهي أن ينحى بالألف نحو الياء جوازا)"[5] " وقد ظهر ممّا تقدَّم عرضه من نصوص، في تصوّر الإمالة اضطرابا فهي أن تنحو بالألف نحو الكسرة وبالألف نحو الياء"[6]" مرَّة، وبالألف نحو الياء مرَّة ثانية، أو بالألف نحو اليّاء وبما قبلها نحو الكسرة وهو المرجَّح عندنا ومن هذا النَّص، تبدأ إشكالية الإمالة في الإزالة من جهة، والتَّعقيد من جهة أخرى. إزالة الشّك في وجودها وجوازها، والتَّعقيد في مواطنها ووظيفتها.

والإمالة من جميع ما سبق عرضه من نصوص، هي توجيه كميتي الفتحة القصيرة والطَّويلة نحو الكسرة، دون الوصول إلى الياء، ولذلك قالوا ينحى بالألف نحو الياء دون أن يصل إليها، وإلاَّ دخلنا في مجال القلب والإبدال. وتبقى إشارة واجب ذكرها، وهي أنَّ الإمالة ليست ظاهرة لغويَّة عامَّة، بل هي تلوين صوتيّ تختصّ به قبائل عربيَّة دون غيرها ونحن نعرف أنَّ الإمالة لغة تميم وأسد وقيس"[7]" وقد شاعت الإمالة في لهجات هذه القبائل في حين شاع الفتح في لغات بقيَّة القبائل العربيَّة فكان الفتح أصلا، والإمالة فرعا له.

الإمالة عند القرَّاء

ومع جميع ما قيل في ظاهرة الإمالة، لم يأت لها الدَّارسون بتعليل ظهورها في جهة دون أخرى أو قبيلة دون غيرها على ما أوردناه لهم، وإنَّما علَّلوا وظيفتها التي أجمعوا فيها على أنَّ من سنن العرب تقريب الأصوات اللّينة بعضها من بعض، لما في ذلك من مشاكلة وتجانس والتماس للخفَّة التي رغبوا فيها ومالوا إليها"[8]" مع ما في هذا النَّص من غموض في مصطلح اللّين.

ويأتي الغموض من عدم وضع علامة خطيَّة للإمالة عند المحدثين، وكان سيبويه جعل لها ألفا تحت الصَّوت الممال، وفي المصحف المرتَّل على قراءة ورش لها نقطة من أسفل الصَّوت الممال، وهي كثيرة ذكرناها من قبل؛ أمَّا إذا رصدنا هذه العلامة في المصحف المرتَّل بقراءة حفص فهي موضع واحد من قوله تعالى: ومرسها﴾"[9]" حيث ظهرت الياء بعد الرّاء من (مجريها) وهي إمالة كبرى، وتسمّى كذلك بالإمالة الشّديدة، وهي الخالية من القلب الخالص والإشباع المبالغ،

الإمالة المتوسّطة التي تكون بين الفتح المتوسّط والإمالة الشّديدة، وتسمّى كذلك هذه الإمالة بإمالة بين اللّفظين أو التّلطيف أو التّقليل"[10]" وهناك من يسمّي هذا النّوع إمالة صغرى. وقد قلنا من قبل الإمالة هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، الألف نحو الياء، دون أن يصير كلّ منهما ذلك الصَّوت المنحو نحوه. وبعد هذا يبقى جانب مهم وهو مدى تأثير الصَّوت الممال في السِّياق.

أثر الإمالة في السِّياق

إنَّ صوت الإمالة، مع ماله من أهمّية في تلوين الصَّوت بالخفَّة والانسجام يبقى ظاهرة سمعيَّة أكثر منها دلاليَّة، وذلك لسببين في ما نرى أوَّلهما غياب رمز بصريّ يحدِّد للإمالة موقعا وكمّية، وثانيهما عجزها عن تحويل الدّلالة الأصليَّة، وتنويعها إلاَّ قليلا؛ ولئن وقفنا عند القرَّاء، وأكثر صور الإمالة في القراءات"[11]" فقد بقيت لنا وقفة معها عند اللّغويّين.

أشرنا إلى أنَّ سيبويه وضع للإمالة ألفا تحت الصَّوت الممال؛ ومن أمثلتها في تحويل الصَّوت دون المعنى صيغة (طغى، طغا) التي جاءت مرَّة بالألف المقصورة في قوله تعالى: ﴿اذهبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾"[12]" ومرَّة بالألف الممدودة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾"[13]" ومن هنا يظهر تأثير الإمالة في تحويل المباني الإفراديَّة؛ حيث جاءت الصِّيغتان مختلفتين، وأبقى عليها الدَّارسون دون تعليل، وجمع ابن مالك الصِّيغ ذات الوجهين في منظومة سمَّاها ما ورد من الأفعال بالواو والياء، ومنها بيت يقول فيه: *وطغوت* في معنى طغيت ومن قنى شيئا يقول قنوته وقنيته"[14] "

جاء في البيت صيغتان يجوز فيهما الواو والياء، ومع أنَّ هذه ظاهرة هي صرفيَّة، لم يعلِّل الصَّرفيّون ورودها وذلك لعدم توظيفهم قواعد الصَّوت وقوانينه، وفي الصِّيغتين عناصر تمنع الإمالة فيهما وهما: الطّاء والغين، وتمنع الإمالة سبعة أحرف وهي، الصَّاد والضَّاد والطَّاء والظَّاء والغين والخاء والقاف إذا وليت قبلها أو بعدها"[15]" وقد اتَّضحت معالم هذا النَّص أكثر عند من قال: (ومِمَّا يوجب فتح الصَّوت بالألف، مجاورته لأحد أصوات الاستعلاء التي هي الخاء والغين والقاف، والظَّاء والضَّاد والصَّاد والطَّاء، ولهذه الأصوات أحوال بحسب مواقعها

الألف تقديما وتأخيرا عنه، وقربا وبعدا منه، وفي حال انفصالها اختلاف)[16]" ومن هنا كان للألف الممال وضعيّات مختلفة ولكلٍّ وضعيّة حكم. وقد حصر الدَّارسون تلوينات الإمالة في كمّية الألف وجعلوها أربعا، أوَّلها أن تكون منفصلة بحرف نحو: (عماد، وثانيها أن تكون منفصلة بحرفين أولهما ساكن نحو شملال، وثالثها أن منفصلة بحرفين متحركين ثانيهما الهاء، نحو يريد أن يضربها، ورابعها أن تكون منفصلة بحرف ساكن ومتحرّكين، أحدهما الهاء، في مثل فدرهماك)"[17]" والصِّيغتان السَّابقتان تخلوان من وجود أي شرط من هذه الأربعة ومع ذلك أميلتا (طغا وطغى). ولَّما لم يهتد الدَّارسون إلى التَّعليل الصَّوتيّ للإمالة، حشروها تحت عنوان ورد بالواو والياء، وبذلك حوَّلوها إلى المجال الصَّرفيّ الإفراديّ. وما جمعه ابن تحت عنوان ما ورد بالواو والياء بلغ ستّة وستين بيتا، في بعض الأبيات جميعها مردّها الإمالة والفتح، فمن فتح رسم الصِّيغة بالألف الممدودة في الماضي لتصير واو أو ألفا في المضارع، ومن أمال رسمها بألف مقصورة في الماضي لتتحوَّل إلى ياء في المضارع. وحلّ إشكاليّة هذه الصِّيغ لا يتأتَّى إلاَّ بالتَّحليل الصَّوتي المكاني. وهذه التَّحوُّلات جميعها صوتيَّة، ومثلها صيغ (الصَّلاة والزَّكاة والحياة) أميلت جميعها نحو الكسر أو الضّم"[19]" ولكلٍّ إمالة تعليل.

تعليل الإمالة

من المتَّفق عليه عند القرَّاء أنَّ الإمالة ما كانت نحو الكسر. وما كان صوب الضّم يسمَّى تفخيمًا، ولكنَّنا نسمِّيها إمالةً تبعا لما قدَّمناه لها من تعريف، ومن هذه النَّظرة تكون صيغة (الصَّلَوة) ممالة نحو الضَّم، والعلَّة الصَّوتيَّة في ذلك، أنَّ الصَّاد مفخَّمة مستعلية مطبقة؛ واللاَّم بعدها متوسِّطة حياديَّة، فمالت كمية الفتحة مع الصَّاد نحو الضَّم، وامتدَّ صوت اللاَّم المشرب ضمًّا، فتولَّد عنها واو، وبه حصل الانسجام والتَّوافق الصَّوتي. أمَّا صيغتا (الزَّكوة والحيوة) فحكمهما مختلف عمَّا سبق.

لقد كنَّا نتوقَّع من صيغة (الزَّكاة) أن تمال نحو الياء وتكون (الزَّكية) ولكن مجيئها في القرآن الكريم بعد الصَّلاة غالبا والأولى ممالة نحو الضَّم أميلت (الزَّكوة) نحو الضَّم بقانون الإتباع والتَّذكُّر وتحقَّق للسِّياق انسجامه.

وتبقى صيغة (الحيوة) وهي أيضا ممالة لكن بقانون التَّوقُّع لا التَّذكُّر، وذلك أنَّ هذه الصِّيغة جاءت في القرآن بعد صيغة الدنيا، هكذا (الحياة الدُّنيا) حتى صارت الصِّيغتان كتركيب مزجي واحد، والنَّاطق (بالحياة) يتوقَّع ما بعدها نطق (الدُّنيا) بما فيها من شدَّة الدَّال وجهره، ويتهيَّأ لها، فيميل الحياة استعدادا لنطق ما بعدها وتحقيقا للانسجام أيضاً؛ وجميع هذه الصّور كمّيات وتلوينات صوتيَّة معلَّلة بقوانين صوتيَّة؛ وقد تكون هذه التَّلوينات دلاليَّة أحيانًا.

من التَّحوُّلات الدّلاليَّة الاحتماليَّة إمالة صيغة (طه) وهذه الصِّيغة اسميَّة وهي من أسماء الرَّسول ــ عليه السلام ــ وهي ممالة في قراءة ورش إمالة صغرى؛ لكن الإمالة الكبرى على غرار إمالة (مجريها) في قراءة حفص تحوِّل معنى الصِّيغة من الاسميَّة إلى الوصفيَّة؛ حيث تقرأ هكذا (طَهِ) وتصبح دالَّة على اسم الفاعل وقد جاءت بالوجهين عند ابن مالك، قال فيها: (وطهوت لحما طابخا كطهيته)"[20]" وتكون الصِّيغة بالوجهين طها يطهى في مثل (سعى يسعى، أو يطهو؛ وطهى يطهي، كمشى يمشي) والتَّعليل صوتيّ في الجميع، على أن يراعى في الصَّوت مجاله ومستوياته وقواعده.

الهوامش:

(1) جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، ج11، ص636 دار صادر، بيروت، لبنان.

(2) وتسمّى الإمالة كذلك بالكسر والبطح والإضجاع. إميل بديع يعقوب، شرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه، حسن حمد،ج 4، ص 24، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، (1419هج/1998). وتُسمَّى كذلك التّقليل والتّلطيف وبين بين. ينظر نشأة محمد رضا ظبيان، علوم اللّغة العربيّة في الآيات المعجزات، ص 91، دار ابن حزم، للطّباعة والنّشر، ط1، (1418هج/1997م). وعبد القادر محمد مايو، الوجيز في فقه اللّغة، ص 50، دار القلم العربي إيهاب، حلب، ط 1، (1998م). وعلي خليف حسين، منهج الدّرس الصّوتيّ عند العرب، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط1، (2011م).

(3) أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، المفصّل في صنعة الإعراب، ص471، قدّم وبوّب له، علي بوملحم، مط، دار الهلال، بيروت، لبنان، (1993م).

(4) شمس الدّين بن الجزري، كاشف الخصاصة عن ألفاظ الخلاصة، ص391، تح، مصطفى أحمد النماس. ط1، (1983م).

(5) ابن مالك، سبك المنظوم وفكّ المختوم، ص 280، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه، عدنان محمد سليمان، وفاخر جبر مطر. مط، دار البحوث للدّراسات الإسلاميّة وإحياء التّراث، الإمارات العربيّة، ط،1، (2004م).

(6) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، ج،2، ص30. وإبراهيم شمس الدين، شرح المكودي على ألفيّة ابن مالك، ص 320، مط، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط،1، (1996م).

(7) عبد الفتاح إسماعيل شلبي، في الدّراسات القرآنيّة واللّغويّة، الإمالة في القراءات واللّهجات العربيّة، ص 73، مط، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، ط،1، (1953 م).

(8) عبد الفتاح إسماعيل شلبي، في الدّراسات القرآنيّة واللّغويّة، الإمالة في القراءات واللّهجات العربيّة، ص 255.

(9) سورة هود، الآية 41. ينظر ذلك، جلال الدّين السيوطي، تفسير الجلالين، ص 296، 297. ومحمد فريد وجدي المصحف المفسّر، القسم الأوّل، ص 290.

(10) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، ج2 ، ص 30.

(11) والسّور التي تشيع فيها الإمالة هي: طه، النّجم، وفيها أكثر الإمالات، المعارج، القيامة، النّازعات، عبس، اللّيل، الضّحى، العلق، ينظر عبد الله بوخلخال، الإدغام عند علماء

العربيّة في ضوء البحث اللّغويّ الحديث، ص 1، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1، (2000م). وسيد أحمد عداد، أحكام القرآن الكريم وتاريخه، ص 26، مط، الفنّ، وهران.

(12) سورة طه، الآية 24.

(13) سورة الحاقّة، الآية 11.

(14) ابن مالك، الأفعال الواردة بالواو والياء، تح، مختار بوعناني، ص 27، ط 2، منقحة ومزيدة، مط، ديوان المطبوعات الجامعيّة. (2001 م).

(15) أبو القاسم الزّمخشري، المفصّل في صناعة الإعراب، ص 472.

(16) مكي درار، الحروف العربيّة وتبدّلاتها الصّوتيّة في كتاب سيبويه، ص 368، ماجستير لغويّات، مخطوط، قسم اللّغة العربيّة وآدابها. جامعة وهران. السّانية.

(17) شرح المكودي، ص321.

(18) ينظر تفصيل هذا، في الأفعال الواردة بالواو والياء، لابن مالك، تح، مختار بوعناني، ص 26، وما بعدها.

(19) في إمالة الضّم ينظر، محمد عنبر، جدليّة الحرف العربيّ وفيزيائيّة الفكر والمادّة، ص 98، دمشق، ط1، 1987م.

(20) ابن مالك، الأفعال الواردة بالواو والياء، تح، مختار بوعناني، ص 31.